

***تمهيد:**

يقصد بالمستوى التركيبي في الدرس الأسلوبي "النحوي" وهو أحد مستويات التحليل الأسلوبي، إذ يركز على دراسة الجملة من ناحية الطول والقصر، والفعل والفاعل، والتقديم والتأخير، والإضافة، والمبتدأ والخبر، والصفة والموصوف، والصلة، والمفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، والروابط، والزمن، وصيغة الفعل والبنية السطحية والعميقة، والمبنى للمعلوم والمبنى للمجهول.

والتركيب عنصر مهم في بحث خصائص الأسلوب، ينتقل فيه الدرس من دراسة البنية السطحية إلى البنية العميقة للجملة/النص، باستخدام النحو التوليدي ل"تشمسكي" في رصد الطاقة الكامنة في اللغة، ومعرفة التحويلات أو الصياغات الجديدة التي تتولد والتي تعدّ أساساً من الأسس التي تكوّن الأسلوب¹.

***01 مفهوم التركيب في الدرس اللساني:**

تقوم ظاهرة التركيب في المنظور اللساني/ الأسلوبي على ظاهرة إبداعية سابقة عليها، ألا وهي ظاهرة الاختيار التي لا تكون ذات جدوى إلا إذا أحكم تركيب الكلمات المختارة في الخطاب الأدبي، حيث تتركّب "الكلمات في الخطاب من مستويين؛ حضوري وغيابي، فهي تتوزّع سياقياً على امتداد خطّي، ويكون لتجاوزها تأثير دلاليّ وصوتي وتركيبيّ، وهو ما يدخلها في علاقات ركنية، وهي أيضاً تتوزّع غيابياً في شكل تداعيات للكلمات المنتمية لنفس الجدول الدلالي، فتدخل إذن في علاقة جدلية أو استبدالية، فيصبح الأسلوب بذلك شبكة تقاطع العلاقات الركنية بالعلاقات الجدولية ومجموع علائق بعضها ببعض"².

فظاهرة التركيب هي ترتيب الكلام ونظمه لتشكيل سياق الخطاب الأدبي، والتركيب عنصر أساسي في الظاهرة اللغوية، وعليه يقوم الكلام الصحيح، وحسب "الفارابي" أنه يدخل "

¹ عيد الحفيظ حسن: ص46.

² عيد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص84.

القرمطيقا" وهي تشمل: "علم قوانين الألفاظ عندما تترکب، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة"¹.

ولعلم قوانين الألفاظ المركبة فرعان: "علم قوانين أحوال التّركيب، وعلم قوانين أظرف الأسماء والكلم، وعلم قوانين الأظرف هو المخصوص بعلم النّحو"².

فاللّغة لا تستقيم للمتکلم إلا إذا وصفها وبنائها على التّرتيب الواقع على طبع أهلها، "فمعاني النّحو متقسّمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتّقديم والتّأخير... فإنّ زاغ شيء عن هذا النّعت فإنّه لا يخلو من أن يكون مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم"³.

فاللّغة بهذا المعنى بناء يخضع لنحو معيّن، ونظام له خصوصيته ومقومات قيامها هي "الملكة اللّسانية" التي تؤسس الإجراءات التّوليدية التّحويلية في مستوى الكلام "فالأعراض المعقولة، والمعاني المدربة لا يوصل إليها إلا باللّغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف"⁴.

وحسب الاعتقاد أنّ التّوليد اللّغوي تقيّد بنظام اللّغة لا يخرج عن إطار القياس الذي هو "حمل فرع على أصل لعلّة جامعة بينهما"، ومن شروطه أن يكون المقيس عليه (في اللّغة) مفردا، فإذا ورد نادرا عدّ شاذا، والشاذ كما هو معروف يحفظ ولا يقاس عليه.

* /02/ أهمية العلاقة بين النّحو والأسلوب:

يقول "تشومسكي": " ومن مهمّات النّحو العاديّة أن يقوم بتحديد فئات الجمل السليمة التّكوين، وأن يسند لكلّ منها وصفا هيكليا أي وصفا للوحدات التي تتكوّن منها الجملة ولكيفيّة تشكّلها، وكذلك للعلاقات البنيويّة بين الجملة وأختها..."⁵.

¹ الفارابي: إحصاء العلوم، تح: عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1948، ص5_7.

² المرجع نفسه، ص7.

³ أبو حيّان التّوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ص121.

⁴ المرجع نفسه، ص111.

⁵ تشومسكي: البنى النّحوية، ص111-140.

وجاءت الأسلوبية الحديثة لتؤكد أنّ الكاتب لا يتسنى له الإفصاح عن حسّه ولا عن تصوّره للوجود إلاّ انطلاقاً من تركيب الأدوات اللغوية تركيباً يفضي إلى إفراس الصورة المنشودة والانفعال المقصود¹، ويذهب المسدي إلى القول: " كلّ مقطع لسانيّ هو حلقة وصل بين الأشياء والوقائع المرموز إليها، والمتقبل ولذلك المقطع، وهذه العلاقة ليست عفوية ولا اعتباطية وإنما هي تفترض عقداً مزدوجاً؛ أحد العقدين يستجيب لضغوط الدلالة وهو التّواضع على رصيد معجميّ معيّن، والآخر يستجيب لضغوط الإبلاغ وهو التّسليم بمجموعة من القوانين الضابطة لتركيب مقاطع الكلام، وهذا العقد الثّاني يشمل الأسس العامّة تاركاً بعض المجال لتصرّف كلّ فرد من أفراد المجموعة اللسانية الواحدة، وهذه الخصوصية هي التي تبرز لنا علاقة الجدولين: النّحو والبلاغة، فالأول هو مجال القيود والثّاني هو مجال الحريّات، وعلى هذا الاعتبار كان النّحو سابقاً في الزّمن للأسلوبية، إذ هو شرط واجب لها، فكلّ أسلوبية هي رهينة القواعد النّحوية الخاصّة باللّغة المقصودة، ولكنّها مرهنة ذات اتّجاه واحد لأنّنا إذا سلّمنا بأنّ لا أسلوب بدون نحو فلا نستطيع إثبات العكس فنقول: لا نحو بلا أسلوب"². وانطلاقاً من هذه العلاقة الجدلية بين النّحو والأسلوب يمكنها أن تساعد دارس الأسلوب في الاستعانة بالقواعد النّحوية وتحديد خصائص التّركيب النّحوي للأسلوب انطلاقاً من هذه القواعد، ولكن النّحو لا يكفي وحده في تحديد خواص الأسلوب ولذلك كان على دارس الأسلوب الإلمام بحقول معرفية عديدة ليتمكّن من دراسة الطّواهر اللغوية.

النّحو يحدّد لنا ما لا نستطيع أن نقول؛ يضبط لنا قوانين الكلام، بينما الأسلوبية تسمح لنا بالتصرّف في الكلام عند استعمال اللّغة، فالنّحو ينفي والأسلوبية تثبت، معنى ذلك أنّ الأسلوبية علم لسانيّ يعني بدراسة مجال التصرّف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللّغة، لذلك قال "الجرجاني": " والأسلوب الضّرب من النّظم والطّريقة فيه"³.

ونظم الكلام بعضه إلى بعض تسبقه عملية الاختيار ومن خلاله يحدث التّمايز بين المنشئين للّغة، وهو اختيار وحدات لغوية تتناسب المقام الذي يرغب المنشئ في التّعبير عنه، وفي عملية

¹ نو الدّين السّد: ص134.

² عيد السّلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص55، ص56.

³ الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص315.

التّركيب يسعى المنشئ إلى تحديد موقع كلّ وحدة من صاحبها، ومراعاة ما يستتبعها من تقديم أو تأخير أو حذف أو إظهار أو إضمار أو سوى ذلك...مع ظهور المقدرّة في طرق الارتباط الداخلي بين الصّيغ، بما يتلاءم مع القوانين اللّغوية العامّة من تعريف أو تنكير...أو مراعاة للجنس أو النّوع من تذكير وتأنيث أو إفراد وتثنية وجمع...¹.

* 03/ التّركيب والدّلالة:

من الملاحظ أنّ كلّ تركيب أسلوبيّ يتضمّن أبعادا دلاليّة تخصّه، وأنّ أيّ تغيير في بنية التّركيب بتقديم أو تأخير في بعض وحداته اللّغويّة، أو تعريف أو تنكير أو إظهار أو إضمار كلّ ذلك يكون بهدف ويتصدّه المنشئ عن وعي وإدراك ولا يمكن أن تظهر خاصيّة أسلوبيّة في التّركيب دون قصد، فمهما كان التّغيير طفيفا في التّركيب فإنّه يأتي استجابة لنسق، ويتطلّبه السّياق؛ فإحلال صيغة اسم الفاعل مثلا محلّ الصّفة المشبّهة، أو إحلال المضارع محلّ الماضي أو الأمر، أو إحلال الاسم محلّ الفعل إنّما هي ظواهر لغويّة يتطلّبها الأسلوب ويستدعيها المقام والسّياق، ومن المؤكّد أنّ ذلك يعطي صورة تركيبية مختلفة ويترتّب عن ذلك معاني مختلفة لأنّ طريقة التّركيب اللّغوي للخطاب الأدبيّ هي التي تمنحه كيانه وتحدّد خصوصيّةه ولذلك كان "ميشال ريفاتير" يركّز على الخطاب في ذاته ويعزل كلّ ما يتجاوزه من مقاييس اجتماعيّة أو ذاتيّة، فالخطاب الأدبيّ هو تركيب جماليّ للوحدات اللّغوية تركيبا يتوحّى في سياقه الأسلوبيّ معاني النّحو، ومن هنا يكسب وظيفة الأدبيّة التي هي سرّ من أسرار خصائصه التركيبية البنيويّة والوظيفية².

* 4/ عناصر المستوى التركيبيّ لدى محمّد مفتاح: في تحليله للخطاب الشعري، قسم "محمّد مفتاح" التّركيب إلى نوعين: أولهما: التّركيب النّحوي، وثانيهما التّركيب البلاغيّ.

* أولا: التّركيب النّحوي:

¹ نور الدّين السّد: ص189.

² Michael Riffaterre. Essais de Stylistique Structurale, P 7 .

يقول "محدّ مفتاح": "المسلّمة التي تنطلق منها الدّراسات الخاصّة بالنّحو العربيّ هي أنّ الجملة العربيّة تبتدئ بالفعل، وينتج عن هذا نتائج خطيرة على مستوى دراسة المعنى والتّداول للجملة العربيّة، ولذلك فإنّ "جاء محمّد" تعتبر تركيباً جاء على أصله، أي أنّه محايد لا يتضمّن أيّ إيتاء تداولي، ولكننا إذا قلنا "محمّد جاء" فإنّ التّركيز وقع على محمّد دون سواه من الأسماء المتبادرة إلى ذهن المخاطب التي يشترك في معرفتها مع المتكلّم، وكذا إيّاك أحبّ، وقائماً كان زيد، فتقديم "إيّاك" قصر المحبّة على المخاطب دون غيره كما أنّ تقديم "قائماً" تعني أنّه لم يكن جالساً ولا نائماً...¹.

يتشكّل الخطاب الأدبيّ من تركيب عناصر وهي تحمل في مجموعها بنية نفسيّة وسياقاً عاماً يتألّف الخطاب من بحسّه، ويستعمل الباحث جملة من المفاهيم والأدوات الإجرائيّة في تحليل الخطاب الشعري، وهذه الإجراءات الموظّفة في تحليل التّركيب هي:

*التّباين: يرى "محمّد مفتاح" أنّ هذا المفهوم هو أحد المكوّنات الأساسيّة لكلّ ظاهرة إنسانيّة ومنها اللّغوية، وقد يكون مختلفاً لا يرى وإلّا من وراء حجاب، وقد يكون واضحاً كلّ الوضوح حينما يكون هناك صراع وتوتّر بين طرفين أو أطراف متعدّدة، ولكن لا يخلو منه أيّ وجود إنسانيّ، ونشاطه، ويشير إلى العناصر المهيمنة في القسم الأوّل من الخطاب المدروس، عنصر الصّراع المتجلّي تركيباً في:

الخبر/ الإنشاء

الجملة الإسميّة/الجملة الفعلية.

الخطاب/ الغيبة.

الإثبات/ النّفي.

النّهي/ الأمر.

¹ محمّد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص 69.

الشيء/ مقابلة (... وإن... لكن¹).

*ب/ التّشاكل: وهو تراكم مستوى معيّن من مستويات الخطاب، وهو هنا المستوى التّركيبي. وقد أسمته البلاغة القديمة "المعادلة" ويرد هذا عند كثير من البلاغيين العرب الذين قسّموه إلى ترصيع وموازنة، ومثّل له بأمثلة مختلفة ك: "هلوعا" و"جزوعا" أو "جميلا" و"قريبا" و"كالمهل" و"كالعهن" وهذا تشاكل جزئيّ أو كليّ ينعكس في الاشتراك في الحرف الأخير أو في الصّيغة الصّرفية، ولذلك فإنّنا نقترح توسيع هذا المفهوم ليشمل أنواعا من المتشاكلات: كالزّمن، والنّفي، والمكان، والضّمائر، وقد تكون هذه التّشاكلات فردية وترد في تركيب متشاكل، وقد ذكر "محمّد مفتاح" تشاكلا في أبيات شعريّة نذكر منها:

وما أقالت ذوي الهيئات من يمن *** ولا أجارت ذوي الغايات من مضر.

وما: ولا (مقولة النّفي)

أقالت: أجارت (مقولة الفعل)

ذوي: ذوي (مطابقة في كلّ شيء)

الهيئات: الغابات (في الصّيغة الصّرفية)

من: من (مطابقة في كلّ شيء)

يمن: مضر (في الصّيغة الصّرفية والعلمية).

ومغزى هذا التّشاكل التّركيبي هو دلالاته على التّكرار والإلحاح والدّوران من حيث الفعل النّحوي... على أنّ التّشاكل يتضمّن بالضرّورة، تباينا وتواترا، فلا تشاكل لفظة أختها تماما، وإنّ ظهر أنّهما متطابقتان².

*ج/ الأقرب أولى: تقديم بعض الألفاظ يعكس الاهتمام بها، والتّركيز عليها بناء على الطّبيعة اللّغوية المتكلّم بها، وعلى مقصدية المتكلّم، ففي قول أحدهم: "أنهاك" وعدم قوله: "انتبه" فقد

¹ نور الدّين السّد: ص191-192.

² محمّد مفتاح: تحليل الخطاب الشّعري، ص71،72.

بدأ المتكلم بنفسه أولاً ثم وجّه الخطاب إلى متلقّيه، لأنّ المتكلم ليس مستثنى من النّهي عن الغفلة والاستكانة إلى مغريات الدّهر، وإنّما النّهي يشمل كلّ إنسان على وجه البسيطة¹.

*الاقتراب اهتمام: مغزى القرب والبعد في نظام اللّغة يؤوّل وفق أهميّة الوحدة اللّغوية الأقرب ثم تكون الأهميّة بحسب التدرّج في التّركيب، ففي تكرار "أنهاك، أنهاك" يعني القرب بين اللّفظتين المكرّرتين الصّميمية والاندماج، والبعد بين اللّفظتين في "ما لليالي من الليالي" يدلّ على التّراخي ووهن الصّلة.

*هـ/ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى: وقد أشار النّحاة العرب وسواهم إلى هذه الظّاهرة اللّغوية، فالزيادة في الصّيغة الصّرفية للفعل مثل: فعّل (بالتّضعيف) زيادة في معناه، ففي مبنى "أنهاك أنهاك" زيادة في المبنى والمعنى، و"فانهاك" تتكوّن من: فعل مضارع+ فاعل مستتر+ مفعول به، فهي الجملة تخصيص وتحديد وتوكيد².

*و/ التّقديم: التّقديم المراد هنا هو الذي يخرق عرف الجملة العربيّة ويشوّش ترتيبها، وهو الذي يثير انتباه المحلّل، والتّرتيب المألوف في الجملة العربيّة هو:

-الفعل + الفاعل + المفعول به (وإذا كان متعدّياً في أحكام في كتب النّحو).

-الفعل + الفاعل + متعلّق (جار ومجرور أو ظرف).

-الفعل + الفاعل + فضلة (حال أو تمييز).

وترتيب الجملة الإسميّة هو:

-المبتدأ + الخبر (وقد يتقدّم الخبر على المبتدأ في مواضع).

وترتيب الأوصاف هو: -الصّفة + الموصوف (وقد تضاف الصّفة إلى الموصوف في مواضع).

*ر/ بنية التّعدي: لبنية التّعدي واللّزوم وظيفية في معنى الخطاب، ودارس التّركيب والدّلالة مطالب بإحصاء الأفعال المتعدّية واللّازمة الواردة في الخطاب المدروس، ويتنبّئ الباحث

¹ نور الدّين السّد: ص192.

² محمّد مفتاح: ص72-76.

"محمّد مفتاح" مفهوم "العامل" بدلا من "الفاعل" أي "Agent" وهو: "كلّ كيان مؤهّل أن يمارس على كيانات أخرى (حكمه) مغيرا خصائصها ومواقعها" والمعاني بدلا من المفعول به بقطع النّظر عن نصبه أو جرّه". وهكذا فإنّ التّعدي يفهم في هذا السّياق بمعنييه النّحوي واللّغوي في أن واحد. فعلى المستوى النّحوي هناك عامل "ومعان" ومفعول به،...وعلى المستوى المعنويّ هناك معتد ومعتدى عليه¹.

*ثانيا: التّركيب البلاغيّ:

عرّف "محمّد مفتاح" مفهوم التّركيب البلاغيّ من خلال إشارته إلى النّظريات المتعدّدة التي تناولت ظاهرة الاستعارة، وقد عالج موضوع الاستعارة في سياق التّنال اللّساني البنيوي الذي من أهمّ ممثليه: "جاكسون" و"ج.نامين" و"مولينو" و"ميتزطامبا" والمعالجة اللّسانية التّوليدية التي أبرز وجوها "تشومسكي" و"فان ديك" و"لوفان" ومحاولات فلاسفة اللّغة التي نجد "سورل" يقترح أهمّ معالمها، والدراسات اللّسانية المستغلّة للنظرية الجشطالتيّة التي تتجلى في دراسات "لاكون" و"جونسون" و"بالمر"². وأهمّ النّظريات التي عرضت قضية التّركيب البلاغي والاستعارة بخاصّة هي:

*1/الإبدالية: ومرتكزاتها الأساسيّة هي:

أ/ أنّ الاستعارة لا تتعلّق إلاّ بكلمة معجميّة واحدة بقطع النّظر عن السّياق الواردة فيه.

ب/ أنّ كلّ كلمة يمكن أن يكون لها معنيان: معنى حقيقي ومعنى مجازي.

د/ هذا الاستبدال مبنيّ على علاقة المشابهة الحقيقيّة أو الوهميّة.

هذه المقولات البلاغيّة الغربيّة تنطبق على النظرية البلاغيّة العربيّة السائدة، ويوظّف "محمّد مفتاح" شواهد متداولة في كتب البلاغة العربيّة لتوضيح هذه الظّاهرة منها: - رأيت شمسا: (إنسان جميل المحيّا).

¹ نور الدّين السّد: ص193.

² محمّد مفتاح: تحليل الخطاب الشّعري، ص81- 117.

-عاشرت بحرا: (جوادا كريما).

*2/ النظرية التفاعلية: ومسلّماتها هي:

أ/ الاستعارة تتجاوز الاقتصار على كلمة واحدة.

ب/ أنّ الكلمة أو الجملة ليس لها معنى حقيقي محدّد بكيفية نهائية وإنّما السياق هو الذي ينتجه.

ج/ أنّ الاستعارة لا تتعكس في الاستبدال ولكنها تحصل من التفاعل أو التوتّر بين بؤرة المجاز وبين الإطار المحيط بها.

د/ أنّ المشابهة ليست العلاقة الوحيدة في الاستعارة فقد تكون هناك علاقات أخرى غيرها.

هـ/ الاستعارة ليست مقتصرة على الهدف الجماليّ والقصد الشّخصي ولكنها أيضا ذات قيمة عاطفيّة ووصفيّة ومعرفيّة¹.

*3/ النظرية العلاقية: التي تهيم بالاستعارة في تركيبها ودلالاتها. ونجد لهذه النظرية أصولا في البلاغة العربيّة ببنياتها المختلفة وتعدّد وظائفها وقد سمّو نوعان من الاستعارة "بالاستعارة التبعيّة" وهي التي يكون فيها المستعار كما يلي:

1-فعلا: عضّنا الدّهر بنابه.

2-اسما مشتقا: نطقت الحال بهذا...الحال ناطقة.

3-حرفا: زيد في نعمة ورفاهيّة...كالقابض على الماء...مازال يفتل منه في الذّروة والغارب.

4-ياء النّداء: يا رجل أقبل إذا كان قريبا منك لأنّ ياء النّداء وضع في أصله لنداء البعيد.

5-الإضافة: أفراس الصّبا ورواحلة.

6-الجملة الحاليّة: كالحادي وليس له بغير.

¹ نور الدّين السّد: ص195.

والواقع أنّ الموروث النقدي والبلاغي العربيّ تناول ظاهرة الأسلوب بالدّرس والتّحليل ويشير عبد الرّحمن بن خلدون إلى علاقة الأسلوب بالتّركيب فيقول: "ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصّناعة، وما يريدون بها في إطلاقهم فاعلمهم أنّها عبارة عن المنوال الذي ننسخ فيه التّراكيب، أو إلى القلب الذي تفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصّناعة الشعريّة، وإنّما يرجع إلى صورة ذهنيّة للتّراكيب المنتظمة كليّة باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصّورة ينتزعها الدّهن من أعيان التّراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقلب أو المنوال. ثمّ ينتقي التّراكيب الصّحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصّها فيه رصّاً كما يفعل البناؤون في القلب أو النّسج في المنوال"¹.

خاصيّة التّركيب إذن باعتبارها ظاهرة أسلوبية استرعت اهتمام النّقاد والدارسين العرب والغربيين على حدّ سواء، فتفاوتت وجهات نظرهم حولها، لأنّ بواسطتها يتحقّق انسجام النّصّ الأدبي وتبرز سماته التي تميّزه عن غيره.

¹ابن خلدون عبد الرّحمن:المقدّمة، ص 335، 536.